

المدائح النبوية في الشعر العربي (دراسة في تطورها التاريخي)

علي سليمي^١، محمد نبي احمدي^٢

تاريخ القبول: ١٤٣١/١٢/٢٨

تاريخ الوصول: ١٤٣١/١/١٩

إنّ المدائح النبوية تشكل قسماً عظيماً من التراث الإسلامي و العربي، فظهرت آلاف من القصائد مليئة بالعواطف الدينية و الإنسانية في الشعر القديم و المعاصر. و قد تطورت هذه المدائح في المعنى و المبنى طيلة قرون، شأنها شأن سائر الألوان الأدبية الأخرى، و إضافة إلى ذلك اصطبغت هذه المدائح في الشعر العربي المعاصر بصبغة اجتماعية و سياسية. فكانت هذه المدائح في بدايات هذا العصر تقليداً للقديم و محاولة لإحياء التراث، و لكن بعد مدة قليلة من الزمن تغير هذا الإتجاه التراثي، فغلبت عليه المهوم الاجتماعية و السياسية، فأصبحت لوناً من الشعر النضالي المنتزح بالأمّة الإسلامية و قضاياها المصرية.

و بناءً على ما طرأ على هذه المدائح من التطورات في الشعر القديم و المعاصر، يمكن وضعها في

ثلاثة اتجاهات:

- ١- إتجاه شعري محض (إتجاه البردة الأولى).
- ٢- إتجاه شعري ممزوج بالتصوف و المعارف الدينية و الفلسفية (إتجاه البردة الثانية).
- ٣- إتجاه شعري ممزوج بالقضايا الاجتماعية و السياسية (في الشعر المعاصر).

الكلمات الرئيسية: المديح النبوي، بردة كعب بن زهير و البوصيري، الشعر الاجتماعي و

السياسي.

١. أستاذ مشارك في فرع اللغة العربية بجامعة رازي. alisalimi832004@yahoo.ca

٢. أستاذ مساعد في فرع اللغة العربية بجامعة رازي. mnabiahmadi@razi.ac.ir

مقدمة

لا شك في أن هذه المدائح النبوية، إضافة على أهميتها الإبداعية كنوع جميل في الشعر العربي قديماً و حديثاً، تعدّ جسراً يصل ماضي الأدب العربي بحاضره، و بذلك فهي تلعب دوراً بارزاً في الإتصال بين الأديبين القديم و الجديد في التراث الإسلامي و العربي، لأنه لون أدبي يتّصف دائماً بالعمق في الإصالة و المعاصرة.

قد طرأت على هذه المدائح تطورات كثيرة و خاصة في الأدب المعاصر، شأنها شأن سائر الألوان الأدبية الأخرى، و الأسئلة المطروحة هنا: ما هي المراحل التي مرّت بها هذه المدائح طيلة قرون؟ و ما الفرق بين إتجاهات هذه المدائح في الشعر العربي القديم و الشعر العربي الحديث؟ و ما هي الميزة البارزة التي تمتاز بها هذه المدائح في الشعر العربي المعاصر؟

يسعى هذا المقال للإجابة عن هذه الأسئلة بإيجاز.

دراسات سابقة

قد ظهرت دراسات كثيرة تهتمّ بشرح المدائح النبوية و بشرح القصيدتين الشهيرتين "بردة" كعب بن زهير و "بردة" البوصيري منها خاصة، كما أشار بروكلمان في كتابه "تاريخ الأدب العربي" (القسم الثالث، ج ٦٥٥) إلى عديد منها. إضافة إلى ذلك قد ألّفت مجموعات كثيرة جمعت فيها هذه المدائح كـ "المجموعة النبهانية في المدائح النبوية في أربعة أجزاء"، كما توجد كتب كثيرة تناولت هذه المدائح بالدراسة و التحليل كـ "المدائح النبوية" لمحمود علي مكي (١٩٩١م)، و "محمد (ص) بين البوصيري و شعراءنا المعاصرين" لإبراهيم عوضين (١٩٩٤م)، و "المدائح النبوية في الأدب العربي" لزكي مبارك الذي درس فيه هذه المدائح في الأدب العربي القديم

و الحديث، و آخر كتاب في هذا الباب "ديوان روائع المديح" لعبد الله نجيب سالم الذي جمع فيه نماذج كثيرة من هذه المدائح.

و في المجالات العربية توجد مقالات كثيرة تدرس هذه المدائح، منها "صورة الرسول العظيم في الشعر المهجري" (مجلة الموقف الأدبي، ع ٤١٩، سنة ٢٠٠٦م)، و "المديح النبوي الأندلسي بين لسان الدين و ابن جابر" (أحمد فوزي الهيب- مجلة التراث العربي ع ٩٧، السنة ٢٠٠٥ م)، و مقالة "شعر المديح النبوي في الأدب العربي" (جميل حمداوي، مجلة الديوان، ٢٠٠٧م)، و مقالة "المدائح النبوية نشأتها و تطورها في الأدب العربي" حسن سرباز (مجلة العلوم الإنسانية، السنة ١٩٩١، العدد ١٠/١)، و مقالة "على ضوء الشعر الملتزم في صدر الإسلام" فيروز حريجي، (مجلة العلوم الإنسانية، السنة ٢ العدد ٣ و ٤) و مقالة باللغة الفارسية بعنوان "مدح الرسول (ص) من الواقع إلى الرواية = مدح رسول (ص) از واقعت تا روايت" (محمد باقر حسيني، مجله ادبيات تطبيقي دانشگاه كرمان، ١٤٠١ هـ.س، سنة ١٣٨٨ هـ.ش)، و مقالة "المديح النبوي و بواعثه في الشعر المهجري" محمد خاقاني (مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية و آدابها- ع ٩ سنة، ١٣٨٧ هـ.ش)، و مقالة "مقارنة بين حسان بن ثابت و الخاقاني في المديح النبوي" تورج زيني وند (مجلة العلوم الإنسانية، ٢٠٠٤، العدد ١٥ - ٤)، و مقالة بعنوان "شخصية النبي في الشعر العربي بين القديم والجديد" للباحثة اللبنانية (نجمة حجار، مجلة نزوى العمانية، ع ٥٣ سنة ٢٠٠٩م)، و "المديح النبوي الأندلسي" أحمد فوزي الهيب (مجلة التراث العربي، ع ٩٧، سنة ٢٠٠٩)، و لكن، و إلى جانب هذه الدراسات كلّها، ماتزال هذه المدائح تحتاج إلى دراسات أخرى تحلّلها

في تطورها التاريخي و خاصة فيما طرأ عليها من تطورات في الشعر العربي المعاصر. يحاول هذا المقال دراسة هذه الناحية من المدائح و الإجابة عن السؤال التالي: ما الفرق بين هذه المدائح في الشعر العربي القديم و المعاصر و ما هي التطورات التي مرت بها؟

١- المدائح النبوي

يقال: "إن كثيراً من شعر المدح لم ينشأ عن الرغبة في العطاء و لكن نشأ عن إعجاب ملاً قلب الشاعر فانبتق الشعر عن عاطفة صادقة" (أحمد بدوي، ١٩٦٤م، ص ٢١٨) إذا لم يصح ذلك في المدائح كلها، فإنه صحيح في المدائح النبوي، لأن "الشاعر في مدح النبي (ص) - بخلاف المديح العام- لايهتم بإرضاء ممدوحه فحسب، و لكنه بالدرجة الأولى يهتم بأن يضع يده و يد المتلقي على تلك الشمائل و السلوكيات، ليقدم الدواء الناجع في إنقاذ الإنسان و توجيهه" (عوضين، ١٩٩٤م، ص ٦)

و كما هو معروف أن المديح النبوي هو "ذلك الشعر الذي ينصب على مدح النبي (ص) بتعداد صفاته الخلقية و الخلقية و إظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره و الأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول (ص) مع ذكر معجزاته المادية و المعنوية و نظم سيرته شعراً و الإشادة بغزواته و صفاته المثلى و الصلاة عليه تقديراً و تعظيماً" (حمداوي، ٢٠٠٧م) فيندرج هذا النوع من الشعر ضمن الرؤية الدينية الإسلامية. يصف زكي مبارك هذه المدائح بأنها: "فن من فنون الشعر... فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، و باب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق و الإخلاص" (مبارك، ١٩٣٥م، ص ١٧).

"إذن فالمدح النبوي يطلق على شعر ديني يركز على سيرة النبي (ص) و فضائله النبوية، وقد رافق هذا الشعر

مولده، هجرته و دعوته، كما و اكب فتوحاته و حب آل بيته (ع) " (حمداوي، ٢٠٠٧). و "إذا كانت بدايات مديح النبي تعود إلى أوائل سنوات الهجرة، فإن هذا الفن تطور على يد عدد من الشعراء على مرّ العصور الإسلامية حتى أصبح اليوم فناً قائماً بذاته له خصائصه و طرقه و غدا المديح النبوي يشكل أحد أهمّ الفنون في المجتمعات الإسلامية الحديثة" (حجار، ٢٠٠٩م).

و لكن إذا امعنا النظر فيما سمي بـ " المدائح النبوية" في الشعر العربي القديم و المعاصر، رأينا أن قسماً عظيماً منه لا يعدّ مدحاً خالصاً، بل يتعلق بقضايا أخرى كذكر الأماكن المقدسة و الشغف لزيارتها، و الإعراف بالذنوب و طلب الشفاعة منه (ص) و ذكر آل البيت و الأصحاب، و الردّ على النصارى و اليهود و غيره، إذن لو اطلقنا على هذه المدائح " الشعر النبوي" بدلاً من المدائح النبوية، لكان أقرب من واقعها و أصدق على مضامينها المتنوعة.

٢- اتجاهات المديح النبوي في الشعر العربي

يبدو أن هذه المدائح كانت في تطور مستمرّ في كل عصر من العصور، شأنها شأن الشعر العربي العام، فيمكن وضعها - بناءً على ما طرأ عليها من تطورات تاريخية - في ثلاثة اتجاهات:

الأول: إتجاه شعري محض (إتجاه البردة الأولى).

الثاني: إتجاه شعري ممزوج بالتصوف و المعارف الدينية و الفلسفية (إتجاه البردة الثانية).

الثالث: إتجاه شعري ممزوج بالقضايا الاجتماعية و السياسية (غلبة الصبغة الاجتماعية).

إنّ لشعر المديح، بناءً على حاجات العصر و مقتضياته، في كل من هذه الإتجاهات، ميزاته الخاصة به.

الأول: إتجاه شعري محض (إتجاه البردة الأولى)

تعود أشعار المديح النبوي إلى بداية الدعوة الإسلامية و " لعل أول ما نعرفه من الشعر الذي قيل في الرسول (ص) في الدور المكّي من حياته، هو الشعر المنسوب إلى أبي طالب عمّ الرسول وكافله بعد وفاة جدّه عبد المطلب (مكي، ١٩٩١م، ص٧). يقول ابن سلام: " و كان أبو طالب شاعراً جيد الكلام و أبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبيّ (ص) و هي:

وَ أَيْضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ

ثَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

(ابن سلام، ١٩٩٧م، ص١٢٥)

جاء في الأغاني عن النبيّ (ص): " ما يمنع القوم الذين نصرّوا رسول الله (ص) بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها" (الأغاني، ج٤، بلا تا)، (ص١٣٧). و بذلك تشكلت نواة المدائح النبوية، فظهرت جماعة من الشعراء البارزين الذين كانوا يدافعون عن الدين الجديد. فاشتهر حسان بن ثابت - كما هو معروف - بـ "شاعر النبيّ" (ص)، لأنه بدأ بمدح الرسول (ص) و يهجو أعداءه مدافعاً عنه و عن أصحابه. و " كان شعره تسجيلاً حياً لحياة الرسول (ص) و غزواته" (الأيوبي، ٢٠٠٣م. ص١١٦)

و اللافت للنظر أن هؤلاء الشعراء يبدأون مدائحهم بالتغزل و التشبيب على عادة الشعراء الجاهليين. فهذا يدلّ على أنّهم كانوا يحفظون إطاراً شعرياً خالصاً و كانت مدائحهم بعيدة عمّا نلاحظه فيما طرأ على هذه المدائح فيما بعد" كما يقال: " سار الشعراء في الإسلام على نهج الشعراء الجاهليين في معظم ما أنشأوه من شعر المديح إتباعاً لهذا التقليد" (أحمد بدوي، ١٩٦٤م، ص١٨٧)، فقد استهلّ كعب بن زهير برده الشهيرة بمطلع غزلي على عادة

شعراء العصر الجاهلي. و اشتملت هذه المقدمة على

ثلاثة عشر بيتاً من القصيدة، فيقول:

بَانتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ

مُتَيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ

(الديوان، ١٤٢٥هـ.ق. ص٢٦)

ثمّ وصف الشاعر ناقته فاستغرق هذا الوصف، القسم الأكبر من القصيدة ثمّ انتقل إلى المديح النبويّ، و الأبيات المتعلقة بالمديح في القصيدة قليلة بالنسبة إلى الأبيات الأخرى، كما أنّ فيها إشارات قليلة للرسالة، مثل: "رسول الله" و "أسلموا" و "نافلة القرآن". (حجار، ٢٠٠٩م) فيقول الشاعر:

أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي

وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً

الْقُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَ تَفْصِيلُ

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ

مُهَيَّبٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوبُ

(الديوان، ١٤٢٥هـ.ق. ص٣٧)

كما يبدأ حسان بن ثابت و الشعراء الآخرون أيضاً مدائحهم بهذا الأسلوب السائد، فيقول حسان:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجُؤَاءُ

إِلَى عَدْرَاءَ مَتْرَلُهَا خَـ

(الديوان، بلا تا، ج١/١٧)

كما يقول الأعشى:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا

وَ عَادَاكَ مَاعَادَ السَّلِيمِ الْمُسَهَّدَا

(الديوان، بلا تا، ص٥٩)

يعتقد زكي مبارك " أنّ قصيدة كعب بن زهير و الأعشى ليست من المدائح النبوية لأنّ المدح الذي جرى

فقد حافظت هذه المدائح على إتجاهها الشعري المحض باستمرارها بعد وفاة النبي (ص) للقرون التالية. يقال: "إن فاطمة (ع) ابنة الرسول (ص) أول من نديته بحسرة لاذعة بعد ارتحاله إلى الرفيق الأعلى، فعبرت عن حزنها قائلة:

إغْبَرَّتْ آفَاقُ السَّمَاءِ وَ كَوَّرَتْ
شَمْسُ النَّهَارِ وَ أَظْلَمَ الْعَصْرَانُ^٢
فَالْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَيْبِيَّةٌ
أَسْفًا عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجْفَانِ
فَلَيْبِكِهِ شَرْقُ الْبِلَادِ وَ غَرْبُهَا
وَ لَيْبِكِهِ مُضْرٌّ وَ كُلُّ يَمَانٍ
وَ لَيْبِكِهِ الطُّوْدُ الْمُعْظَمُ حَوْهٌ
وَ الْبَيْتُ ذُو الْأَسْتَارِ وَ الْأَرْكَانِ
يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ الْمُبَارَكِ ضَوْهٌ
صَلَّى عَلَيْكَ مُنْزَلُ الْقُرْآنِ
(ابن رشيق القيرواني، ج ٢، ص ٨١٦)

فبقي هذا الإتجاه الشعري في المدائح إلى أواخر العصر العباسي، كما نجد شاعر أهل البيت الكمي في هاشمياته، يقول:

طَرِبْتُ وَ مَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرُبُ
وَ لَا لِعِبَاءِ مَنِّي وَ ذُو الشَّقِّ يَلْعَبُ
إِلَى النَّفْرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ بِحَبِّهِمْ
إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَالِي أَتَقَرَّبُ
وَ أَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ
عَلَيْنَا وَ فِيمَا إِحْتَارَ شَرْقٌ وَ مَغْرَبُ
وَ بُورِكَتَ مَوْلُودًا وَ بُورِكَتَ نَاشِئًا
وَ بُورِكَتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذَا أَنْتَ أَشْيَبُ

٢. اغْبَرَّتْ: اكفهرت و اظلمت.

علي لسأهما لا يزيد شيئاً عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد موجهاً إلى الملوك، أما المدح النبوي فيمتاز بعد ثمائل النبي (ص) و سرد ما في الرسالة من المحاسن... تقرباً إلى الله" (مبارك، بلا تا، ص ١٥٨).

و أحياناً يتجاوز الشعراء الملامح التقليدية التي كانت شائعة في الوصف الجاهلي ليصوّروا صورة أخرى في مدائحهم، منشأها الحس الديني الجديد، فتتراءى هذه المدائح متمثلة في رسول الله (ص) كهاد للأمة و بشير بالحق، يقول حسان:

وَ قَالَ اللَّهُ قَدْ أُرْسِلْتَ عَبْدًا
يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبِلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فُقُومُوا صِدْقُهُ
فَقُلْتُمْ: مَا نُجِيبُ وَ مَا نَشَاءُ
(الديوان، بلا تا، ج ١/١٨)

كما جاء في كتاب "الشعر و الشعراء" لابن قتيبة أن الشاعر الجاهلي-الإسلامي النابغة الجعدي أتى النبي (ص) و أنشده:

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهَدَى
وَ يَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ تَيْرًا^١
بلغنا السماء مجدنا و حدودنا

وَ إِنَّا لَنرَجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا
فقال رسول الله (ص) إلى أين أبا ليلي؟ فقال: إلى الجنة، فقال رسول الله (ص): "إن شاء الله" و أنشده:
وَ لَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
بِوَادِرِ تَحْمِي صَفْوِهِ أَنْ يَكْدُرَا
وَ لَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
حَلِيمٌ إِذَا مَا أُوْرِدَ الْأَمْرُ أُصْدِرَا
فقال رسول الله (ص): "لا يفضض الله فاك" (ابن قتيبة، ١٩٩٨، ص ١٩٣)

١. الهجر: مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء.

الثاني: إتجاه شعري مزوج بالتصوف و المعارف الفلسفية و الدينية (إتجاه البردة الثانية)

تطورت المدائح النبوية في هذا الإتجاه الشعري تطوراً متأثراً بالبيئة و الظروف الخاصة لهذة الفترة، لأنها نتاج مرحلة تاريخية شاعت فيه العقائد الصوفية معبرة عن معاناة إنسانية للواقع الإحتتماعي، السياسي و الثقافي الذي عاش فيه الشاعر، فأصبح المديح النبوي في ذلك العصر غرضاً رئيساً في الشعر، لأن الظروف كانت مساعدة لازدهاره، و من عوامل الظهور لهذا النوع من المدائح - إضافة إلى شيوع التصوف- هي تشجيع السلاطين له، سيطرة الروح الدينية على المجتمع، انهيار الأوضاع الإقتصادية و الصحية و الإقتصادية، و ظهور خطر الأعداء من صليبيين و غيرهم، فألبس الشعراء مدائحهم ثوباً جديداً ملائماً لتلك الظروف.

و تعد قصيدة "بردة البوصيري" التي مطلعها بالمطلع:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَدِي سَلَمٍ
مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةِ بَدَمٍ
(الديوان، ٢٠٠٧ م. ص ٢٢٧)

من أهم هذه القصائد و أكثرها ذيوياً بين مدائح هذه الحقبة، لأنها كانت مصدر إلهام لكثير من القصائد التي أنشئت بعد البوصيري و "أثرت على القصائد البديعية التي كانت أكثرها في مدح النبي (ص) تأثيراً بالغاً" (حكيمي، بلا تا، ص ١٤٢). يقول زكي مبارك: "إن البوصيري سما في المدائح النبوية سمواً لم يوفق إلى معشاره في سائر شعره و هذا أثر لصدق العاطفة" (مبارك، ١٩٩٣، ٢١١). " فقد أحصى بروكلمان من شروحيها المخطوطة و المحفوظة في مكتبات العالم أكثر من مائة شرح فضلاً عما فقد" (بروكلمان، ١٩٩٣ م. ج ٨٥/٥). يقال إن «بردة البوصيري» صيغت على وزن وقافية قصيدة «هل نار ليلى بدت ليلاً» (حجار، ٢٠٠٩ م) للشاعر الصوفي

لَقَدْ غَيَّبُوا بَرًّا وَ صَدَقًا وَ نَائِلًا

عَشِيَّةً وَ أَرَاكَ الصَّفِيحُ الْمُنْصَبُ

(الكميت، بلا تا، ص ٢٥)

يرجح زكي مبارك مديح الكميت على الشعراء الآخرين كالأعشى و كعب بن زهير فيقول: "إن قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن" (المصدر السابق، ص ١٥٨)

فاستمر هذا التيار الشعري في المدائح النبوية في العصر العباسي، كما نلاحظ في شعر الشريف الرضي و مهيار الديلمي و شعراء آخرين، و هذا النوع من المدائح و إن طرأ عليه تطور قليل في شكله و بعض مضامينه، لكنه احتفظ بشعريته الخالصة و بعده عن المبالغات الصوفية التي استغرقت فيها هذه المدائح في أدب عصر الإنحطاط بعد سقوط بغداد على يد التتار. فمن ميزات المدائح النبوية في هذا الإتجاه، اقتصارها على ذكر الصفات المعهودة للنبي (ص) و هي صفات إنسانية و رسالية، و بعده عن المبالغات الكثيرة التي شاعت فيما بعد. نلاحظ أن دعبل الخزاعي شاعر أهل البيت في قصيدته الشهيرة "مدارس الآيات" يطلب من الله سقياً لقبور النبي (ص) بالمدينة - كعادة الشعراء في طلب الرحمة لأهل القبور - فيقول:

سَقَى اللهُ قَبْرًا بِالمَدِينَةِ غَيْثُهُ

فَقَدْ حَلَّ فِيهِ الأَمْنُ بِالبَرَكَاتِ

نَبِيِّ الهُدَى، صَلَّى عَلَيْهِ مَلِيكُهُ

وَ بَلَغَ عَنَّا رُوحَهُ النَفْحَاتِ

صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا ذَرَّ شَارِقُ

وَ لَاحَتْ نُجُومُ اللَّيْلِ مُبْتَدِرَاتِ

(الديوان، ١٩٩٤ م. ص ٤١)

١. و أراك. أخفاك. الصفيح: كل غريض من حجارة، حجر القبر.

المشهور عمر بن الفارض (ت ٦٣٢ هـ. ق.) يقول ابن الفارض في مطلع قصيدته:

هل نارٌ ليلي بَدَت لَيْلاً بذي سَلَمٍ

أَمْ بَارِقٌ لآخِ فِي الزُّورِاءِ فَالْعَلَمِ

(الديوان، بلا تا، ص ١٢٨)

يمدح البوصيري النبي (ص) بالتفصيل فيصف خصاله الكريمة وصفاً مليئاً بالحب و الإخلاص، فيقول:

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَ الثَّقَلِ

بَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ

هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ

لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الْاَهْوَالِ مُقْتَحِمٍ

فَاقَ النَّبِيِّنَ فِي خَلْقِهِ وَ فِي خُلُقِهِ

وَ لَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمِهِ وَ لَا كَرَمِهِ

وَ كُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُتَمَسِّمٍ

عَرَفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيْمِ

فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَ صَوْرَتُهُ

تَمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئُ النَّسَمِ

مُنَزَّةً عَنِ شَرِيكِ فِي مَحَاسِنِهِ

فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُقْتَسِمِ

فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ إِنَّهُ بَشَرٌ

وَ إِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ

(الديوان، ٢٠٠٧م. ص ٢٢٩)

و الملاحظ أن الشعر الصوفي كان في أغلبه توسلات إلى الرسول (ص) و إلى الصحابة والأولياء، و كثيراً ما قد تجلّى هذا الإتجاه في مدائح البوصيري و في برده. فيذكر الشاعر- في مدائحه عامة و في برده خاصة - قضايا ذات نزعة صوفية تختلف عما جاء في المدائح النبوية في الشعر القديم. على سبيل المثال يشير إلى حلقة العالم و يربطها بخلقه النبي (ص) ملهماً من العقائد الصوفية، فيقول:

وَ كَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةً مَنْ

لَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

(المصدر السابق)

فلم نجد مثل هذا المعنى في المدائح السابقة للنبي (ص). كما جاء في مديحه أيضاً ما يصف القرآن مشيراً إلى الخلافات حول حدوث القرآن و قدمه، فيقول:

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ

قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمُوصُوفِ بِالْقَدَمِ

(المصدر نفسه، ص ٢٣٣)

يقول زكي مبارك إن في هذا البيت "إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن و حدوثه" (مبارك، بلا تا، ص ٢٠٣)

إن ما قد ذكر في هذه الأبيات من المعاني و الإشارات الدينية و الصوفية التي يوجد كثير منها في مدائح هذه الحقبة عند البوصيري و غيره من الشعراء، يدلّ دلالة واضحة على تطور محسوس في هذه المدائح، و لو بحثنا عن مثل هذه المعاني في المدائح السابقة لا نكاد نجد لها مثيلاً. و لذلك اختلفت الآراء حول مديح البوصيري بما فيها من العقائد الدينية و الصوفية، بينما لا نجد خلافاً مثل هذا في شأن المدائح السابقة منها. فالملاحظ أن من ميزات المدائح النبوية في هذا الإتجاه (البردة الثانية) اندماجها بالمعارف الدينية و الصوفية و العرفانية و الفلسفية التي لم تكن سائدة على المدائح في الإتجاه الأول في العصر الإسلامي و ما بعده. و مما سبق يلاحظ أن المدائح النبوية منذ البوصيري و من قلده تختلف عن المدائح النبوية قبلها، لأنه شتان بين التصور الواقعي البشري كما صورّه شعراء المديح النبوي الأوائل من أمثال كعب بن زهير و كعب بن مالك و حسان بن ثابت و معاصريهم، و بين التصور المتأخر للرسول (ص) عند الشعراء

المديح النبويّ، فظهرت جماعة من الشعراء "اتخذوا المديح النبوي كوسيلة للتحدث عن الأغراض الإجتماعية و السياسية و القضايا العربية مثل قضية فلسطين و القدس ... و فدارت مضامينهم حول التحسر بما آل إليه حال العرب و مناجاة الرسول (ص) لجمع شتات العرب ... و التحسر على عصور الإسلام الزاهية و قيادته الرشيدة و التمني لو أنّ قائداً يعيد أمجاد الماضي" (خاقاني، ١٣٨٧هـ.ش. ص ٣١) فأصبحت المدائح النبوية في الشعر العربي المعاصر نوعاً من الشعر الإجتماعي النضالي الذي يصف الشاعر فيه المشاكل التي يعاني منها العالم العربي في العصر الحاضر، و يحاول استنهاض روح المقاومة في الشعوب العربية المهزومة، فظهر بذلك - بعد الجيل الأول من الشعراء الكلاسيكيين - نوع جديد من المديح النبوي، فغلبت على الجانب التراثي فيه النواحي الإجتماعية و السياسية ذات الصبغة النضالية و اتسعت دائرة هذه المدائح اتساعاً يشتمل على كثير من الشعراء، فيمكن تقسيم أصحاب هذه المدائح في الشعر المعاصر بشكل عام، إلى تيارين رئيسين هما:

(الف) الإتجاه الإسلامي (التقليدي و غير التقليدي).
(ب) الإتجاهات الفكرية الأخرى (القومي، المسيحي، اليساري، اليميني).

٣- حالة الأمة الإسلامية المأساوية في المدائح (فلسطين و القدس و...)

صارت القضية الفلسطينية موضوعاً لكل شاعر إسلامي معاصر، سواء أكان فلسطينياً أم غير فلسطيني، فانعكست هذه النزعة السياسية في المدائح النبوية أيضاً، كما امتدّ ظلّها على الشعر العربي عامّة. فعلى سبيل المثال، في قصيدة (نشيد للرجال) للشاعر الفلسطيني محمود درويش، يشير

المتأخرين الذين أحلوا شخصية الرسول(ص) إلى سلسلة طويلة من الخوارق والمعجزات والقدرات فوق الطبيعية.

الثالث: إتجاه شعري ممزوج بالقضايا الإجتماعية و السياسية (غلبة الصبغة الإجتماعية)

في أقلّ من قرنين تطوّر الشعر العربي المعاصر تطوّراً واسعاً في جوانبه الفكرية و الفنية. يتحدّث الكاتب المصري غالي شكري عن مدى هذه التطورات العميقة في الشعر العربي المعاصر مقارناً بينه و بين الشعر العربي القديم، فيقول: «إنّ المفازلة بين الشعر التقليدي و الشعر الحديث تصبح ذات غير موضوع لإتھما لا يملكان - في حقيقة الأمر - من عناصر الأرض المشتركة سوى اللغة» (غالي شكري، ١٩٧٨م. ص ١١٦)

في بداية العصر الحديث، تراءى مجموعة من القصاصد في مديح الرسول (ص) تقوم بالمعارضة و أحياناً فيها قليل من الإبداع و التجديد، و تسمّى تلك القصاصد بقصاصد شعراء التيار الكلاسيكي أو الإتجاه التراثي في المدح. و كان محمود سامي البارودي، أحمد شوقي، أحمد محرم، علي أحمد باكثير، و معروف الرصافي و شعراء آخرون من الذين برعوا في هذا الإتجاه الشعري. و «ينفرد الشاعر أحمد محرم من بين شعراء العصر بتطويره لهذا الفن إلى ملاحم تحكي سيرة الرسول الكريم (ص) و تتعنى بأخلاقه و مناقبه و جهاده في نشر الدعوة الإسلامية». (هنادي، ٢٠٠٩م)

كانت معظم مدائح هؤلاء الشعراء تقليداً للتقديم و محاولة لإحياء التراث، كما تدلّ أسماء قصائدهم على هذا، كـ "نهج البردة"، و "همزية" شوقي، و "كشف الغمّة في مدح سيّد الأمة" للبارودي، فعارض الشعراء بردة البوصيري الشهيرة و قصائده الأخرى و ذلك في البداية، و لكن بعد مدة قليلة من الزمن، تعيّر هذا الإتجاه التراثي في

في المدائح النبوية بشكل خاص. يشير الشاعر المسيحي جورج صيدح إلى الحالة المأساوية للقدس فيخاطب النبي (ص) قائلاً:

يَا مَنْ سَرَيْتَ عَلَيَّ الْبُرَا
قِ وَ جَزْتَ أَشْوَاطَ الْعِنَانِ^١
عَرَّجَ عَلَيَّ الْقُدْسِ الشَّرِيْبِ
فَ فِيهِ أَقْدَاسٌ تُهَانُ
مَاذَا دَهَاهُمْ هَلْ عَصَوْ

كُ فَاصْبَحَ الْغَازِي جَبَانِ^٢
(صيدح، ٢٠٠٦م)
كما يعبر الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) عن آلامه تجاه قضية فلسطين مدافعاً عن المجاهدين الذين تحملوا صعوبات النضال. فيحرم الشاعر العيد على نفسه لأن الأحرار محبسون في السجون، فيقول:

صِيَاماً إِلَى أَنْ يَقَطَرَ السَّيْفُ بِالْدَمِ
وَصَمْتاً إِلَى أَنْ يُصَدِّحَ الْحَقُّ يَا فَمِ
أَفْطَرْتُ وَأَحْرَارُ الْجَمِي فِي مَجَاعَةٍ
وَعَيْدٌ وَأَبْطَالُ الْجِهَادِ بَمَاتِمِ؟

فهو ينتقد حالة الذل في الدول الإسلامية، و يخاطب النبي (ص) مشيراً إلى فقدان العزة للبلاد الإسلامية، فيقول:

يَا فَاتِحَ الْأَرْضِ مِيدَاناً لِقُوَّتِهِ
صَارَتْ بِلَادُكَ مِيدَاناً لِكُلِّ قُوَى
(القروي، ٢٠٠٦م)
فتلاحظ أن الشاعر نزار قباني في مديحه الرائع بالمطلع:
عَزَّ الْوُرُودُ وَ طَالَ فِيكَ أَوَامُ
وَ أَرَقْتُ وَ حُدِي وَ الْأَنَامُ نِيَامُ^١

الشاعر في حوار خيالي مع الأنبياء (ع) إلى السجن الكبير الذي قد أحاط بالفلسطينيين و يسأل الرسول الكريم (ص) عن طريق إلى خلاصه و خلاص قومه، فيقول في هذا الحوار المتخيل:

مَعَ مُحَمَّدٍ (ص)
أَلُو
أَرِيدُ مُحَمَّدَ الْعَرَبِ
نَعَمْ! مَنْ أَنْتَ؟
سَجِينٌ فِي بِلَادِي

بِلَا أَرْضِ
بِلَا عِلْمِ
بِلَا بَيْتِ
رَمَوْا أَهْلِي إِلَى الْمَنْفَى
وَ جَاؤُوا يَشْتَرُونَ النَّارَ مِنْ صَوْتِي
لَأَخْرُجَ مِنْ ظِلَامِ السَّجْنِ...
مَا أَفْعَلُ؟

تَحَدُّ السَّجْنَ وَ السَّجَانَ
فِيَنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ
تُذِيبُ مَرَارَةَ الْحَنْظَلِ!

(درويش، ١٩٨٩م، ص ١٥٦ و ١٥٧)

فالشعر النبوي في الادب المعاصر - كما قد قيل - هو شعر غلبت عليه الهموم الإجتماعية و السياسية، فالشاعر المعاصر "يعاني من الأحزان و الهموم التي تعتصر قلبه و فؤاده بسبب أهباء الأمة الإسلامية و ضياعها و أهيار قيمها و معاناة الإنسان فيها لوجود الظلم و الإحساس بالإعتراب بكل أنواعه و تكالب الإستعمار على أوطانها؛ هذا ما جعل الشاعر يظهر أوجاعه الدفينة و جروحه الكلمي و يصور معاناته اليائسة في كل أنواع شعره" (حمداوي، ٢٠٠٩). فظهرت هذه المعاناة في الشعر العربي الحديث بشكل عام و

١. البراق: دابة ركبتها الرسول (ص) ليلة المعراج

٢. دهاهم: اصاهم

يكشف عن ألم شديد سيطر عليه و ملاً قلبه، فيصف
الحالة المأساوية التي عانى منها المسلمون بحزن و حسرة،
فيخاطب النبي (ص) قائلاً:

الحزنُ يملأُ -يا حبيبُ- جوارحي

فالمسلمونَ عنِ الطريقِ تَعَامُوا
وَ الذُّلُّ خِيَمَ فَالنفوسُ كَثِيبةٌ

وَ عَلَى الكِبَارِ تَطَاوَلَ الأَقْرَامُ^٢

الحزنُ أصبحَ حيزنا فَمَسَاؤُنَا

شَجْنٌ وَ طَعْمٌ صَباحِنَا أَسْقَامٌ

وَ اليأسُ ألقى ظِلَّهُ بنفوسنا

فَكَأَنَّ وَجَهَ النيرينِ ظلامٌ

ثمَّ يسألُ الشاعرُ في حيرةٍ عن ماذا يستطيع أن يفعل
المرءُ للخروج من هذا الظلام المهلك، و العيون لا تبصر و
القلوب مستغرقة في ظلام، و هل يستطيع أن ينام الإنسان
على سرير مؤلم من الأشواك:

أَتَى اتَّجَهْتُ ففِي العيونِ غشاوةٌ

وَعَلَى القلوبِ مِنَ الظلامِ رُكَامٌ

الكَرْبُ أَرَقْنَا وَ سَهَّدَ ليلنا

مَنْ مهدهُ الأشواكُ كيفَ يَنَامُ؟

ثمَّ يشيرُ الشاعرُ إلى حالةِ الذلِّ و المسكنةِ الحاكمةِ على
المسلمين و يشتكى من أنَّهم يذَلُّونَ أمامَ العاصبين لبلادهم
بينما يشدُّونَ على أبناءِ الوطنِ فيحرِّمُونَهُم تراهه الطيبُ،
فيخاطبُ النبي (ص) منشداً:

يَا طيبةَ الخيراتِ ذَلَّ المسلمونَ

وَ لا مُجِيرَ وَ ضيَعَتْ أَحلامُ

يُغضُّونَ إنَّ سَلَبَ الغريبِ ديارَهُم

وَ عَلَى القريبِ شَدَى التُّرابِ حَرَامٌ

بَاشُوا أَسارى حَيْرَةً وَ تَمَزُّوا

فَكَأَنَّهُم بَيْنَ الوَرَى أَعْنَامٌ

نَامُوا فَتَامَ الذُّلُّ فَوْقَ جُفُونِهِم

لاغروَ ضاعَ الحزْمُ وَ الإقْدَامُ

يَا هادِي الثَّقَلينِ هَلْ مِنْ دَعْوَةٍ

تُدْعَى بِهَا يَسْتَيْقِظُ النُّوَامُ

(قباني، ٢٠٠٩م)

كما نلاحظ أنَّ الشاعر العراقي بدر شاكر السياب في
مدحجه بعنوان " مولد المختار " و هذا من أخريات قصائده
التي ألفها بمناسبة المولد النبوي عام ١٩٦١م. بالمطلع:

دُمُوعُ اليتامى في دُجَى اللَّيْلِ تَقَطُّرُ
وَ نوحُ الثكالى عاصفٌ فيه يَصْفِرُ

يشير إلى حالة المسلمين المؤلمة في استفهام يدل على
حسرة لاذعة في نفسه، فيخاطب النبي (ص) قائلاً:

ألا قبيسةٌ مما تنفستَ في الدُّجَى

فَنَحِيَا، وَ ينهدُّ الظلامُ المسورُ؟

ألا تُفجِّرُ البركانَ في مُقفراتنا

فيسبسلُ الأحرارُ أيَّانَ يُفجِّرُ؟!

تَلبَّدَ وَجَهُ اللَّيْلِ تُخفِيهِ غيمةٌ

مِنَ الوَحْلِ وَ القارُ المَدْمَى تَرمِجُ

وَ مالتَ عَلَى الأفقِ الضريرُ منائرُ

وَ حَرَّتْ قبابُ، وَ انهوى، ثمَّ منبرُ

كَأَنَّ لَمْ يَضِيءَ بالنورِ ميلادُ أحمدَ

وَ لَمْ تنطفئِ للفرسِ نارُ و مسعرُ

وَ لَمْ يدحرِ الجيشُ الصليبيَّ صامدُ

وَ لا راعتُ الغازينَ " اللهُ أَكْبَرُ "

(الديوان، ج٢، ص ٥٧٣)

١. أوام: حرارة العيش

٢. القزام: جمع القزم: اللقيم

كَانَ حَبْلُ الْإِخَاءِ فِيكُمْ وَثِيقًا
كَيْفَ أَمْسَى وَعَقْدُهُ مَحْلُولٌ
لَسْتُ مِنْكُمْ بِيَأْسٍ بَلْ نَهْوَضُ
مِنْكُمْ بَعْدَ فِتْرَةٍ مَأْمُولٌ
(الديوان، ٢٤٨)

كَمَا يَصُورُ الشَّاعِرُ السُّورِي عَمْرَ أَبُو رَيْشَةَ، فِي مَدِيحِهِ
الرَّائِعِ بَعْنَوَانَ "مَلْحَمَةُ النَّبِيِّ" (ص) وَ الَّتِي هِيَ أَشْبَهَ بِالقِصَّةِ
القَصِيرَةِ (حَوَادِثُ الظُّهْرِ) بِالْمَطْلَعِ:
أَيُّ نَجْوَى مُخْضَلَةِ النِّعْمَاءِ
رَدَدَتْهَا حَنَاجِرُ الصَّحْرَاءِ؟
وَ فِي نِهَآيَةِ القِصِيدَةِ يَخَاطِبُ الشَّاعِرُ "عُرُوسَ الصَّحْرَاءِ"
وَ يَطْلُبُ مِنْهَا إِعَادَةَ المَجْدِ للعَرَبِ فيقول:
يَا عُرُوسَ الصَّحْرَاءِ مَا نَبَتَ المَجْدُ
عَلَى غَيْرِ رَاحَةِ الصَّحْرَاءِ
كَلَّمَا أَغْرَقَتْ لِيَالِيهَا فِي الصَّمْتِ
قَامَتْ عَن نَبَاةِ الزَّهْرَاءِ
فَأَعْيَدِي مَجْدَ العُرُوبَةِ وَ اسْقِي
مِنْ سِنَاهُ مَحَاجِرَ الغَيْرَاءِ
قَدْ تَرَفُّ الحَيَاةُ بَعْدَ ذَبُولِ
وَيَلِينُ الزَّمَانُ بَعْدَ الجَفَاءِ
(الديوان، ج ١، ص ٣٦٥)

وَ مِثْلُ هَذِهِ المَعَانِي الإِجْتِمَاعِيَّةِ وَ السِّيَاسِيَّةِ كَثِيرَةٌ جَدًّا فِي
المَدِيحِ النَّبَوِيِّ فِي الشَّعْرِ العَرَبِيِّ الحَدِيثِ، فَهِيَ هُوَ الشَّاعِرُ
الْيَمِينِيُّ عَلِيٌّ أَحْمَدُ بَاكْتَبِرُ فِي قِصِيدَةِ "نِظَامِ البُرْدَةِ" بِالْمَطْلَعِ:
يَا لَيْلَةَ الأَمَلِ المَعْشِيِّ بِالأَلَمِ
كُونِي دَلِيلِي فِي مَحْلُولِكَ الظُّلْمِ
يَشِيرُ إِلَى عَصْرِ البَعْثَةِ وَ المَسَاوَاتِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَ المَرَأَةِ
مِنْ نَاحِيَةِ الدِّينِ الحَنِيفِ، فيقول:

كَمَا أَنَّ الشَّاعِرَ المِصْرِي خَلِيلَ مِطْرَانَ، فِي مَدِيحِهِ بِالْمَطْلَعِ:
هَلَّ الهَلَالُ فَحَيُّوا طَالَعَ العِيدِ
حَيُّوا البَشِيرَ بِتَحْقِيقِ المَوَاعِيدِ
يَصِفُ مَعَانَاةَ الرَّسُولِ (ص) وَ مَا تَحَمَّلَهُ مِنَ المَشَقَّاتِ فِي
دِفَاعِهِ عَنِ الدِّينِ، فيقول:
عَانِي مُحَمَّدٌ مَا عَانِي بِهَجْرَتِهِ
لِمَآرِبٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُحَمَّدُ
وَ كَمَ غَزَاةٍ وَ كَمَ حَرْبٍ تَجَشَّمَهَا
حَتَّى يَعُودَ بِتَمَكِينٍ وَ تَأْيِيدِ
رِسَالَةَ اللَّهِ لَوْ حَلَّتْ عَلَيَّ جِبِلٌ
لَانْدَكَّ مِنْهَا وَأَضْحَى بَطْنُ أَحْدُوْدِ
وَ لَوْ تَحَمَّلَهَا بِحَرْ لَشَبَّ لَظِيٌّ
وَ جَفَّ وَ اَهْمَالَ فِيهِ كُلُّ جَلْمُوْدِ
مَا أَثْمَرَتْ هَجْرَةُ المَهَادِي لِأَمْتِهِ
مِنْ صَالِحَاتٍ أَعَدَّتْهَا لِتَخْلِيدِ
وَ سَوَّدَتْهَا عَلَيَّ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
طَوَالَ مَا خَلِقَتْ فِيهَا بِتَسْوِيدِ
وَ فِي نِهَآيَةِ القِصِيدَةِ يَنَادِي الشَّاعِرُ مِصْرِي مِصْرَ وَ يَحْتَمُّهُمْ
عَلَى الجِدَّةِ فِي أَعْمَالِهِمْ، قَائِلًا:
أَيُّ مُسْلِمِي مِصْرَ إِنْ أَلْجَدَّ دِينُكُمْ
وَ بِنَسِّ مَا قِيلَ شَعْبٌ غَيْرُ مَجْدُوْدِ
(الديوان، ج ١، ص ٢٩٨)

وَ فِي هَذَا السِّيَاقِ، يَصِفُ الشَّاعِرُ العِرَاقِي مَعْرُوفَ
الرِّصَافِي التَّنْفِرْقَةَ بَيْنَ المِصْلَمِيْنَ فِي مَدِيحِهِ بِالْمَطْلَعِ:
وَضَحَّ الحَقُّ وَ اسْتَقَامَ السَّبِيلُ
بِعَظِيمٍ هُوَ النَّبِيُّ الرَّسُولُ
فِيَسْأَلُ المِصْلَمِيْنَ قَائِلًا:
لِمَ لَمْ تَحْفَظُوا أَحْوَةَ دِينِ
جَاءَكُمْ نَاطِقًا بِهِ التَّنْزِيلُ

فهذه هي نماذج قليلة من المدائح النبوية في الشعر العربي المعاصر، نلاحظ أنّ الصبغة الإجتماعية و النضالية واضحة فيها كل الوضوح، و أنّ شخصية النبي (ص) في هذه المدائح أخذت دلالات متنوعة و مختلفة عمّا كان عليه في المدائح السابقة، فبينما كانت تلك المدائح في الشعر العربي القديم ذات صبغة و صفة فردية، فإنّها اصطبغت في الشعر المعاصر بصبغة إجتماعية رسالية، و هذا تطور و تجديد طرأ على المديح النبوي في الشعر العربي الحديث، فاكتفينا بهذا القدر منه لأنّه كثير جداً، و في الختام يمكن القول إنّ الإتجاه الإجتماعي و السياسي هو الغالب الآن على المديح النبوي.

نتائج البحث

إنّ للمدائح النبوية مكانةً رفيعةً في الشعر العربي، و بما أنّ الشعر العربي لم يزل في تطور، فإن هذه المدائح تطورت تبعاً لما حدث للشعر في كل حقبة من الزمن، و يبدو أنّ لهذه المدائح ثلاثة إتجاهات مختلفة طيلة القرون الماضية، كما ذكرناها سالفاً.

ففي ما سُمّي بـ "الإتجاه الشعري المحض" (إتجاه البردة الأولى) كانت المدائح تدور في دائرة شعرية خالصة بعيدة عن المبالغات، و لا تكاد تتراءى فيها نزعة للتصوف أو الفلسفة، كما لا نكاد نلاحظ فيها نزعة فكرية و دينية عميقة خارجة عن فهم عامة الناس، فكانت المدائح في هذا الإتجاه الشعري، تُعنى بالخصال الإنسانية الكريمة للرسول (ص) أكثر من أيّ شيء آخر، كما نلاحظ أنّ كعب بن زهير و حسان بن ثابت و غيرهم من الشعراء، كانوا يمدحون النبيّ (ص) و أصحابه بالكرم و الجود و الشجاعة و الفضائل الإنسانية العالية، مشيرين إلى النور الذي أنزله الله على النبيّ لهداية الناس.

وَأَفَى عَلَى فِتْرَةٍ وَ الْأَرْضُ وَاجِفَةٌ
مَّا مِهَا مِنْ صَنُوفِ الْكُفْرِ وَ الْجُرْمِ
فِي كُلِّ رَكْنٍ مِنَ الدُّنْيَا جَبَابِرَةٌ
يَسْتَبْعِدُونَ رِقَابَ النَّاسِ كَالْعَنَمِ
سَاوَى النَّسَاءِ حَقُوقًا بِالرِّجَالِ سَاوَى
مَا يَتَّقِيهِ اخْتِلَافُ الْخَلْقِ وَ الشِّيمِ
يَرَى (أَنُوثَتَهَا) أَرْقَى فِضَائِلَهَا
فَلَا تَذُلُّ بِأَهْوَانٍ وَ لَا تَسِمِ

ثمّ يسأل الله تعالى بصدق عاطفته الدينية، بأن ينجي الأمة و يخلصها من الحالة المأساوية التي أصابتها، فيقول:

يَا رَبِّ يَا صَاحِبَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وَمَنْ
تُحْيِي الْإِرَادَةَ مِنْهُ دَارِسَ الرَّمَمِ
بِمَا بَعَثَ بِهِ خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ أَجْرُ
يَا رَبِّ أُمَّتُهُ مِنْ قُصْمَةِ الْقُصَمِ^١

(باكثر، ٢٠٠٩)

فهذه المدائح - كما نلاحظ في كثير منها - أشبه بمناجاة إجتماعية مليئة بالشكوى من الظروف السيئة الحاكمة على البلاد الإسلامية، فها هو محمد الفيتوري الشاعر السوداني في قصيدة بعنوان (يوميات الحاج إلى بيت الله الحرام) يخاطب النبيّ (ص) بحسرة و ألم قائلاً:

- يا سيدي، نعلم أنّ كان لنا مجد و ضعيفناه
- بينته أنت و هدمناه
- و اليوم...ها نحن - أجل يا سيدي - نرقل في
سقطتنا العظيمة

- كأننا شواهد القدية

- تعيش عمرها لكي تؤرّخ الهزيمة.

(نقلاً عن: زايد، ١٩٩٧، ص ٨٠)

^١. قُصْمَةُ الْقُصَمِ: المصيبة المهلكة

- [٢] ابن سلام الجمحي، محمد (١٩٩٧م) طبقات الشعراء، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، ط ١، بيروت.
- [٣] ابن الفارض، أبو حفص عمر بن أبي الحسن (بلا تا) ديوان، دار صادر، بيروت.
- [٤] ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٩٩٨م). الشعر و الشعراء، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، ط ١، بيروت.
- [٥] ابو ريشه، عمر (٢٠٠٩م) الاعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت.
- [٦] ابو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (بلا تا) دار الإحياء للتراث، ط ١، بيروت.
- [٧] الأيوبي، ياسين (٢٠٠٣م) معجم أعلام الشعراء: المدح النبوي، دار المكتبة، بيروت.
- [٨] باكثير، علي أحمد (٢٠٠٩م) نظام البردة، موقع باكثير: www.bakatheer.com/index.php.
- [٩] بدوي، أحمد أحمد (١٩٦٤م) أسس النقد الأدبي عند العرب، هُضة مصر، ط ٣، القاهرة.
- [١٠] بدوي، أنس (٢٠٠٥م) روائع الشعر المعاصر، دار المعرفة، ط ١، بيروت.
- [١١] بروكلمان، كارل (١٩٩٣م) تاريخ الأدب العربي (القسم الثالث ج ٦٥) المترجم: السيد يعقوب بكر و رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- [١٢] بوصيري، محمد بن سعيد (٢٠٠٧م) ديوان، دار المعرفة، ط ١، بيروت.
- [١٣] درويش، محمود (١٩٨٩م) ديوان (أوراق زيتون)، دار العودة، ط ١٣، بيروت.
- [١٤] خاقاني، محمد (١٣٨٧م) المدح النبوي و بواعثه في الشعر المهجري، مجلة الجمعية العلمية للغة العربية و آدابها، ع ٩.

أما مدائح الإنجاه الثاني - أعني المدائح التي إمتزجت بالتصوف و المعارف الدينية و الفلسفية (إتجاه البردة الثانية) - فقد ظهرت هذه المدائح في عصر الفترة، و تعدّ "بردة" البوصيري بداية لهذا النوع من المدائح. ازدهرت هذه المدائح في حين ظهر المديح النبوي كغرض رئيس للشعر لأن الظروف كانت مستعدة لظهورها و لازدهارها. و في الإتجاه الثالث (الإتجاه الإجتماعي) تطورت هذه المدائح تطوراً جذرياً فأصبغت بصبغة عصرية تختلف كل الإختلاف عمّا كانت عليه من قبل، فأصبح المديح النبوي شعراً مزوجاً بالقضايا الإجتماعية و السياسية و النضالية. لأنّ الصبغة الإجتماعية التي غلبت على الشعر العربي المعاصر بشكل عام، أثرت على هذه المدائح، فأصبحت غلبة الصبغة الإجتماعية عليها من ميزاتها الفارقة بينها و بين المديح النبوي في الشعر القديم.

الهوامش

١- هذا المديح لم يكن موجوداً في "الأعمال الشعرية الكاملة لترار قباني" (٣ مجلدات مطبوعة في ١٩٨٣-١٩٨٦)، فورد أخيراً بعض الشكوك لنسبته إلى الشاعر و لكن في موقع السيرة الذاتية لترار قباني، جاءت القصيدة باسم مدح الرسول (ص) الرقم ١٢٥ و في المجالات الإلكترونية و في المواقع الكثيرة، اندرج هذا المديح للشاعر دون أيّ شكوك، باسم "عزّ الورود" مرة و أجمل مديح للنبيّ (ص) مرة أخرى.

المصادر و المرجع

[١] ابن رشيقي القيرواني، الإمام أبي علي حسن (٥١٤٠٨ق) العمدة في محاسن الشعر و آدابه، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، ط ١، بيروت.

- [١٥] حريجي، فيروز (١٩٩١م) "على ضوء الشعر المتلزم في صدر الإسلام"، مجلة العلوم الإنسانية، السنة ٢ العدد ٣ و٤).
- [١٦] حمداوي، جميل (٢٠٠٧م) شعر المديح النبوي في الأدب العربي، مجلة ديوان العرب، <http://www.diwanalarab.com/spip.php?article>
- [١٧] —، (٢٠٠٩م) مميزات الشعر الإسلامي المعاصر وخصائصه الموضوعية والفنية، <http://www.arabicnadwah.com/articles/islamicpoetry-hamadawy.htm>
- [١٨] حجار، نجمة (٢٠٠٩م) شخصية النبي في الشعر العربي بين القديم والجديد، مجلة نزوى (الأردنية) ع ٥٣.
- [١٩] حسيني، محمد باقر (١٣٨٨) مدح الرسول (ص) من الواقع إلى الرواية، مجلة الأدب المقارن بجامعة، ع ١٤.
- [٢٠] حكيمي، محمد رضا (بلا تا) ادبيات و تعهد در اسلام، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، قم.
- [٢١] الخزاعي، دعبل بن علي (١٩٩٤م) الديوان (شرح حسن حمد)، دار الكتاب العربي، ط ١، بيروت.
- [٢٢] زيني وند، توج (٢٠٠٤م) "مقارنة بين حسان بن ثابت و الخاقاني في المديح النبوي"، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٥ - ٤.
- [٢٣] سرباز، حسن (٢٠٠٣م) "المدائح النبوية نشأتها و تطورها في الأدب العربي"، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١.
- [٢٤] السياب، بدر شاعر (٢٠٠٠م) الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت.
- [٢٥] شكري، غالي (١٩٧٨م) شعرنا الحديث إلى أين، ط ٢، دار الآفاق، بيروت.
- [٢٦] الرصافي، معروف (٢٠٠٦م) الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت.
- [٢٧] صيدح، جورج (٢٠٠٦م) نقلاً عن مقالة "صورة الرسول العظيم في الشعر المهجري" (خالد محي الدين البرادعي) مجلة الموقف الأدبي، ع ٤١٩.
- [٢٨] عوضين، ابراهيم (١٩٩٤م) محمد (ص) بين البوصيري و شعراءنا المعاصرين، وزارة الأوقاف، القاهرة.
- [٢٩] الفيتوري، محمد (١٩٩٧) نقلاً عن: "استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر" على عشرين (زايد)، دار الفكر العربي، القاهرة.
- [٣٠] قباني، نزار (٢٠٠٩م) نقلاً عن: مجلة الغرباء الالكترونية، العدد ٦٨ (مجلة تعنى بالثقافة و الأدب الإسلامي تصدر بلندن).
- [٣١] —، (١٩٨٣-١٩٨٦) الأعمال الشعرية الكاملة ل نزار قباني، ٣ مجلدات، منشورات نزاره قباني، بيروت.
- [٣٢] القروي، رشيد سليم الخوري (٢٠٠٦م) نقلاً عن مقالة "صورة الرسول العظيم في الشعر المهجري" (محي الدين البرادعي) مجلة الموقف الأدبي، ع ٤١٩
- [٣٣] - كعب بن زهير (١٤٢٥هـ.ق. ٢٠٠٤م) الديوان (صنعه الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري) دار الكتاب العربي، بيروت.
- [٣٤] الكميت، زيد الأسدي (بلا تا) الروضة المختارة، مؤسسة نعمان، بيروت.
- [٣٥] مبارك، زكي (١٩٣٥م) المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، ط ١، بيروت.

- [٣٦] —، (١٩٩٣م) الموازنة بين الشعراء، دار الجليل، ط ١، بيروت.
- [٣٧] —، (بلا تا) احمد شوقي، دار الجليل، بيروت.
- [٣٨] مطران، خليل (بلا تا) ديوان خليل مران، دار مارون عبود، بيروت.
- [٣٩] مكّي، محمود علي (١٩٩١م) المدائح النبوية، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط ١، مصر.
- [٤٠] هنادي، أحمد جميل بيطار (٢٠٠٩م) شعر المديح النبوي تطوره وخصائصه، <http://www.yemen-nic.net/contents/studies/detail.php?ID>

مدایح نبوی در شعر عربی (بررسی دگرگونی‌های تاریخی آن)

علی سلیمی^۱، محمد نبی احمدی^۲

تاریخ دریافت: ۱۳۸۸/۱۰/۱۵

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۹/۹/۱۴

مدایح نبوی بخش عظیمی از میراث اسلامی و عربی گذشته را تشکیل می‌دهد و هزاران قصیده سرشار از عواطف دینی و انسانی در این زمینه سروده شده است. این نوع شعر، مانند دیگر گونه‌های ادبی، طی سالیان گذشته از لحاظ شکل و محتوا، دستخوش دگرگونی فراوانی شده است. علاوه بر این، در شعر معاصر، به شدت رنگ اجتماعی و سیاسی به خود گرفته است. این مدائح در آغاز عصر حاضر، تلاشی به منظور احیای سنت شعری گذشته بود، اما طولی نکشید که رنگ سنتی آن دگرگون شد و دغدغه‌های اجتماعی و سیاسی بر آن غلبه نمود که در نتیجه آن، این نوع شعر، در برابر امت و موضوعات سرنوشت ساز آن، خود را متعهد احساس نمود.

بر مبنای دگرگونی‌هایی که این مدائح در ادب قدیم و جدید عربی به خود دیده است، می‌توان آن را به سه دسته تقسیم‌بندی نمود:

۱- گرایش شعری خالص (برده اول)

۲- گرایش شعری آمیخته به تصوف، معارف دینی و فلسفه (برده دوم)

۲- گرایش شعری با رنگ اجتماعی و سیاسی (در شعر معاصر)

کلید واژگان: مدح نبوی، برده کعب بن زهیر و بوصیری، شعر اجتماعی و سیاسی

۱. دانشیار گروه عربی دانشگاه رازی alisalimi832004@yahoo.ca

۲. استادیار گروه عربی دانشگاه رازی. mnabiahmadi@razi.ac.ir